ايلة وبتراء والانباط

قال ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخهِ ان خالد بن الوليد قال لعبد المسيح اخبرني بما رأيتَ من الايام " قال رأيت المرأة من الحيرة تضع مكتلها على رأسها ثم تخرج حتى تأتي الشام في قرىً متصلة وبساتين ملتفة وقد اصبحت اليوم خرابًا " . ثم تعزّى ابن خلدون عن ذلك بقولهِ " ان الله يرث الارض ومَن عليها وهو خير الوارثين " كأنهُ تعالى لا يريد ان يرث الارض عامرةً فيهلك اهلها لكي يرثها خرابًا

ومن يجل في بلاد الشام من حدود الحجاز إلى بر الاناطول ومن بحر الروم الى الجزيرة والعراق ويشاهد الخرائب المنتشرة في طول البلاد وعرضها واطلال المدن القديمة والهياكل الفخيمة ويراجع كتب التاريخ ويقف على اخبار مملكة يهوذا واسرائيل وصور وصيدا ودمشق وتدمر وما كان لمن من عزّة الملك وكثرة الجيوش والاساطيل — ثم ينظر إلى حال البلاد الآن وما صارت اليهِ من الانحلال والاضمحلال و يفتش عن ابنائها في اميركا واستراليا وجزائر المحيط و يجدان الباقين فيها لا يبلغون مليونين عدًّا واكثرهم يتبلغ العيش تبلغًا ومدنهم البرية مآوٍ للبوم والبحرية مناشر للشباك — مَن يرَ ذلك كلهُ يقف وقفة الحيران يسائل كتب التاريخ عن اسبابهِ ويبحث في شرائع العمران عن دواعيهِ . واذا كان من ابناء تلك البلاد مثلنا ادّتهُ خاتمة المطاف الى التأوه والتحسّر واليأس والقنوط

اذا خرج السائح من مصر قاصدًا الشام برًّا بطريق العقبة وجبال الشراة فاول مكان يبلغهُ من حدود الشام العقبة عند طرف اللسان الشرقي من لساني البحر الاحمر . هناك كانت مدينة ايلة وعلى مقربة منها كان مرفأ سفن سليمان الحكيم التي كانت تجلب لهُ البضائع من الهند وشرقي افريقية ذهبًا وصندلاً وحجارة كريمة . امتلك بنو اسرائيل هذه المدينة في ايام داود وتعاقب عليها ملوكهم وملوك ارام (الشام) الى ان تغلب عليها رصين ملك ارام قبل المسيح بنحو سبع مئة وخمسين سنة وبقيت فرضة للسفن الذاهبة الى بلاد الهند والآتية منها . وتنصّر اهلها في بدء النصرانيّة وصارت مقرّ اسقف وبقيت كذلك الى ان غزا النبي محمد غزوتهُ الاخيرة الى تبوك فاتاهُ يوحنا بن رؤبة صاحب ايلة فصالحهُ على الجزية وكتب لهُ كتابًا فبلغت جزيتهم ثلثمئة دينار ثم زاد فيها الخلفاء من بني اميّة فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلثمئة . ومن ثم غاب ذكر هذه المدينة فلم تعد

تذكر في كتب التاريخ الاَّ نادرًا . ويقال ان الصليبيين اخذوها سنة ١١١٦ للمسيح واستردها صلاح الدين الايوبي منهم سنة ١١٦٧

ثم اخذها رينلد شاتيلون سنة ١١٨٣ . وذكرها ابو الفدا بعد ذلك فقال " والقلزم وايلة على ذراعين او لسانين من البحر قد طعنا في البر الشمالي وصار بين اللسانين المذكورين للبر دخلة الى الجنوب في البحر وفي تلك الدخلة الطور وعلى طرف اللسان الشرقي ايلة وعلى طرف اللسان الغربي القلزم " ثم قال " وايلة كانت مدينة صغيرة وكان بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين جعل منهم القردة والخنازير وهي في زماننا برج وبه والٍ من مصر وليس بها مزدرع وكان لها قُلَيعة في البحر فابطلت ونقل الوالي الى البرج في الساحل " . ولم يبقَ الآن من هذه المدينة الاَّ الانقاض وليس العبرة بها بل بمرفإها الذي كان فرضة الشام الى الهند وجنوبي افريقية ومقرَّ تجارة واسعة النطاق كثيرة المكاسب جعلت الفضة والذهب في اورشليم مثل الحجارة كثرةً فانقطعت التجارة وخربت المدينة وردم المرفأ وليس في بلاد الشرق كلها من يسأل عن سبب ذلك

وعلى منتصف المسافة بين ايلة وبحيرة لوط قبر هرون وعين موسى حيث يقال ان هرون اخا موسى مات ودُفن وان موسى ضرب الصخرة فشقها وخرج الماء منها لسقيا بني اسرائيل . وهناك منفرج بين جبال الشراة فيه آثار مدينة قديمة كانت محط القوافل بين بلاد فارس وبلاد مصر وبين الهند والبحر المتوسط وهي التي سميت في التوراة سالع وسمَّاها اليونان والرومان بترا ولعلها البتراء الواردة في ما ذكرهُ ابن هشام عن غزوة النبي لبني لحيان حيث قال انهُ سلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ثم على تخيض ثم على البتراء . وظن بعضهم انها هي الرقيم التي ذكرها ابو الفداء حيث قال " ومن الاماكن المشهورة بالشام الرقيم وهو بُلَيدة صغيرة بقرب البلقاء وبيوتها كلها منحوتة من الصخر كانها حجر واحد " . لكن ذلك بعيد لبعد البلقاء عن جبال الشراة

ومعنى البتراء باليونانية الصخر او الجندل وهذا معنى سالع اسمها بالعبرانية . ومعنى سالع بالعربية الشق في الجبل . ومن الغريب ان منفرج الجبل الذي يوصل به الى اطلالها يسمَّى الآن شقًّا كأنهُ مرادف لاسمها العبراني

وكانت البتراء الادوميين ثم تغلَّب عليها النبط جاؤوها من العراق العربي وكانوا اهل حضارة وتجارة ولغتهم كالارامية وحروفها كالحروف الكوفية والمظنون ان الحرف الكوفي مشتق منها . وجاء في التواريخ القديمة ان انتيغونس احد قوَّاد الاسكندر المكدوني الذي

توفي سنة ٣٠١ قبل المسيح بعث حملتين على النبط في بتراء بعد ما استولى على سورية وفلسطين الاولى بقيادة قائد اسمهُ اثينيوس فهاجم بتراء سنة ٣١٢ قبل المسيح ورجالها غائبون عنها في سوق عمومية وغنم منها غنيمة وافرة من المر واللبان وخمس مئة وزنة من الفضة ولما عاد اهلها ورأوا ما حلَّ بهم انفق اثرهُ ثمانية آلاف منهم وبيَّتوهُ وقتلوا اكثر رجالهِ . والحملة الثانية بقيادة ابنهِ ديمتريوس وبلغ خبرهُ النبط فامتنعوا عليهِ ولم ينلهم منهُ مكروه

وذكر سترابو المؤرخ النبط في ايام اغسطس قيصر نقال ان عاصمتهم بتراء وقد سميت بذلك لان الصخور تحيط بها من كل ناحية وفيها مياه غزيرة لسقي بساتينها واكثر الارض حولها قفار ولا سيما في ما يلي اليهودية وكان تجار الهند والعرب يأتونها ببضائعهم وينقلونها من هناك الى العريش وزادت هذه التجارة في ايام الرومان فاختطوا طريقًا لها من ايلة إلى بتراء فدمشق وطريقًا اخرى من بتراء الى اورشليم وعسقلان وثغور الشام

واتى الفيلسوف اثيناديورس صديق سترابو الى بتراء واستوطنها مدة ورأى فيها كثيرين من الرومانيين وغيرهم من الغرباء وكانوا مستوطنين فيها

وذكرها بليني‌وس في القرن الاول المسيحي وقال ان النبط يسكنون مدينة اسمها بتراء في وادٍ اقل من ميلين اتساعًا يحيط بها جبال لا تُسلك وفيها نهر جارٍ

اما الذي اكثر من ذكرها وذكر ملوكها فهو يوسف ابن كربون المؤرخ اليهودي الشهير المعروف بيوسيفوس قال في الفصل الثالث عشر من الكتاب الثالث عشر من تاريخهِ المشهور "بعاديات اليهود" ان الاسكندر ملك اليهود حارب عُبَيْد ملك العرب (سنة ٩٣ قبل المسيح) وكان عبيد قد اقام لهُ كمينًا في وعر عسر المسالك في الجولان فدخل الاسكندر واديًا عميقًا هو ورجالهُ ولم ينجُ منهُ الاَّ بشق الانفس

ثم ذكر كيفية استيلاء ملوك النبط على دمشق فقال ان انطيوخس آخر ملوك السلوقيين قصد الحرث ملك بتراء فابعد الحرث من وجههِ اولاً إلى حيث تمكنهُ البلاد من مناجزتهِ ثم انقلب عليهِ بغتةً بعشرة آلاف فارس من فرسانهِ فكاد جنود انطيوخس يولون الادبار ورأى منهم ذلك فاسرع إلى لم شعثهم وتشديد عزائمهم فاصابتهُ ضربة قضت عليهِ وتفرق شمل رجالهِ بعدهُ وانهزم الذين نجوا منهم الى قرية فانا فماتوا جوعًا . وكان اهالي دمشق يكرهون بطليموس فدعوا الحرث ملك العرب وملكوهُ عليهم

اما الحرث الذي ذكرهُ بولس الرسول فقد قال يوسيفوس ان هيرودس انتباس (انطيفس) تزوَّج ابنتهُ ثم اراد تطليقها ليتزوج هيروديا امرأة اخيهِ فتركتهُ وذهبت إلى

بيت ابيها ونشبت الحرب بسبب ذلك بين ابيها وهيرودس فدارت الدائرة على هيرودس . وأمر فيليوس والي سورية بمحاربة الحرث والاقتصاص منهُ فجيش الجيوش وسار بها ثم بلغهُ ان مولاهُ طيباريوس قيصر مات فعدل عن الحملة . والظاهر ان الحرث اغتنم الفرصة حينئذٍ وغزا دمشق واستولى عليها مدةً قصيرة لان استيلاءهُ عليها حينئذٍ لم يذكرهُ احد من المؤرخين

وذكر مؤرخو العرب النبط فقالوا انهم من اهل بابل وجعل بعضهم السريان والنبط امةً واحدةً وجعلهما بعضهم امتين ولكنهُ حسب النبط والكلدان امةً واحدة ثم قالوا ان بختنصر ملك بابل "سار الى العرب وقد نظم ما بين ايلة والابلة خيلاً ورجلاً وتسامع العرب باقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائهِ فهزم عدنان اولاً ثم استلحم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فانزلهم الانبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطة" . ومفاد ذلك ان العرب استوطنوا العراق العربي منذ عهد قديم واختلطوا بالانباط . وهو صحيح تثبتهُ الآثار والتواريخ القديمة . والظاهر ان عرب العراق كانوا يتجرون بين اشور ومصر فانتشروا في بلاد الشام التي كانوا يمرون بها واقاموا فيها ثم ملكوها وصاروا عمالاً للقياصرة ومنهم الحوارث ملوك بتراء . واما الحوارث من عرب غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الاوّلِ
اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبلِ

فليسوا ملوك بتراء الاقدمين بل هم من عرب اليمن تفرقوا بسيل العرم الذي حدث ١٠٢ للمسيح ونزلوا على ماء بالشام يقال لهُ غسان فسموا بهِ . وكان في الشام الضجاعمة وهم من عرب العراق فحاربهم الغساسنة واخذوا البلاد منهم

وخضعت بتراء للرومانيين في عهد تراجنس في اوائل القرن الثاني للمسيح وسماها سكانها باسم ادريانس اكراماً لهُ وضربوا نقودهم باسمهِ ثم ذكرت في القرن الرابع والخامس والسادس وحضر مطرانها جرمانوس في المجمع السلوقي سنة ٣٥٩ . ومطرانها ثيودورس في المجمع الاورشليمي سنة ٥٣٦ ولم يبقَ منها الآن الا شيء من مدافنها وهيا كلها وكلها منحوتة في الصخر على جانبي الوادي وهي من اعجب ما صنعهُ الناس كما ترى في الصورة المدرجة في صدر هذا الجزء وهناك آثار مشهدها ومقاعدهُ منحوتة في الصخر قطرهُ نحو ٣٥ متراً وكان يسع نحو اربعة آلاف نفس

هذه خلاصة وجيزة من تاريخ مدينتين من مدائن الشام لم نذكرها للفكاهة ولا لتهييج الشجا بل ليرى ابناء المشرق ان اطراف بلادهم المحسوبة الآن قفاراً ومفاوز كانت غاصة بالسكان وكان فيها مدن ضخمة تردُّ غارات اليونان والرومان وان ما صلحت لهُ منذ مئات من الاعوام تصلح لهُ الآن اذا بذلت الهمة في اعادة العمران اليها

النار والسيف في السودان

حكم الخليفة واوصافهُ

لم يكد الخليفة عبدالله التعايشي يتربع في دست الخلافة حتى التفت الى بيت المال فطرد منهُ احمد ولد سليمان امينهُ لانهُ كان يوزع الاموال عَلَى اقارب المهدي بغير حساب ونصَّب فيهِ ابرهيم ولد عدلان وهو رجل هام خبير بضروب الكسب فنظم اساليب الدخل والنفقة واكثر الموارد عَلَى انواعها وضرب الريالات مازجاً فضتها بالنحاس ولما ابى التجار قبضها تهددهم الخليفة باخذ اموالهم وقطع ايديهم وارجلهم من خلاف فتعاملوا بها ولكنهم رفعوا اثمان البضائع والخليفة يحسب انهم اطاعوا اوامرهُ. وقد علم ولد عدلان هٰذَا كيف يعلي مقامهُ في عيني الخليفة ويكتسب رضاهُ وهو انهُ خصهُ واقاربهُ بالنصيب الاكبر مما في بيت المال فبقي مكرَّماً مسموع الكلمة . ثم لما زاد عتو الخليفة وطغيانهُ بدرت من ولد عدلان بادرة فاخذهُ بها وقتلهُ شرَّ قتلة كما سيجيء

وجمع قبائل العرب الآتين معهُ من الانحاء القريَّة وامرهم ان يكونوا عصبةً واحدةً والاَّ غلبهم البرابرة والجعالون وسكان الجزيرة . وجعل يصادر اقرباء المهدي ورجالهُ والخليفتين الآخرين ويزيد سطوةً واستبداداً يوماً فيوماً واذا درى ان الناس انتبهوا الى ذلك ولاموهُ عليهِ ولو في بواطنهم ارسل الى الخليفتين بعض الهدايا من الغنائم الَّتي كانت ترد اليهِ تباعاً كالجواري والخيول والبغال واوعز الى اقاربهِ ان يخبروا بذلك في كل مكان حتى يرسخ في النفوس انهُ كريم منفال ولا يتَّهمهُ احد بسوء

ولما رأى ان تلك الالوف المؤلفة من سكان السودان لا يمكن ان تقيم عَلَى ولائهِ طويلاً اذا اشتهر ظلمهُ او خانهُ دهرهُ بعث الى قبيلتهِ يحثها عَلَى المجيء اليهِ ليملكها البلاد الَّتي انعم الله عليهِ بها وغرضهُ الباطن ان يستعزَّ بقومهِ ويأمن بهم غدرات الزمان فجاؤهُ كلهم وغنموا